# الاغتراب في الشعر العربي الحديث

# قصيدة الأرض المحجوبة: لجبران خليل جبران نموذجا

الدكتور: باقي محمد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة سيدي بلعباس

هـــو دا الفجر فقومي ننصرف ... عـــن ديار مالنا فيها صديـــق

مـــا عسى يرجوا نبات يختلف ... زهـــرة عن كل ورد شقيـــق

وجـــديد القلب أنا يأتلـــف ... مع قـــلوب كل ما فيها عتيـــق

هـــو دا الصبح ينادي فاسمعي ... فـــهلمي نقتفي خطواتـــه

قـــد كفانا من مساء يدعي ... إن نـــور الصبح من آياتـــه

يا بـــلاد حجبت منـــد الأزل ... كيف نرجوك و من أين السبيل

أي قـــفر دونـــها أي جبل ... سـورها العالي و من منا الدليل

أســـراب أنت أم أنت الأمـــل ... في نـــفوس تتمنى المستحيـــل

أمـــنام يتهادا في القـــلوب ... فادا استيقظت ولى المنـــام

أم غيوم طفن في شمس الغروب ... قبل أن يغرقن في بحر الـــظلام

بلاد الفكر يا مهد الأولـــى ... عبـــدوا الحق وصلوا للجمـــال

طلبنـــاك بركب أو على ... متن سفن أو بخيل أو رحـــال

لست في الشـــرق و لا الغرب ولا ... في جنوب الأرض أو نحو الشمال

لست في البحر ولا تحت الجبال ... لست في السهل ولا الوعر الجرح

أنـــت في الأرواح أنوار ونـــار ... أنت في صدري فؤادي يختـــلج[1]

## تمهيد:

لا شك أن القصيدة العربية الحديثة أرادت أن تصنع لنفسها كونا مستقلا يمثل سماتها ويظهر وجهها الفني للعالم، ومن هنا يتجلى لنا موقف النقاد مدحا وقدحا في أصالتها، علما أن القصيدة العربية الحديثة قامت بتصوير العصر بكل تناقضاته وسلبياته، فالرمزية الجديدة قد رضعت دون أدنى شك من ثدي الرومنسية التي غطتها التراجم الحديثة عن الآداب الأوربية بالإضافة إلى نزعة الألم والحنين عند الشاعر العربي وهي نزعة عريقة في القدم حدثتنا عنها المقدمة الغزلية والطللية في القصيدة الجاهلية منذ نشأة الشعر العربي.

إن الحرية في التعبير واستخدام الحوار الداخلي، والاقتباس والرمز والأسطورة المأخوذة من الحياة اليومية وملامح التاريخ العربي والإنساني أصبحت من الخصائص الفنية التي تميز القصيدة الجديدة عن غيرها من النماذج الشعرية الأخرى في أدبنا.

إن الشعر العربي يواجه في المرحلة الراهنة جملة من التحديات، والتحدي الرئيسي الذي واجهه منذ ظهوره الانتقال بالشعر إلى مرحلة متقدمة ودلك بتحريره من الكلاسيكية شكلا ومضمونا ونستطيع أن نؤكد أن الشعر الحديث نجح بالفعل في تحقيق خطوات حاسمة على هذا الطريق فتراجعت الكلاسيكية وهيمن الشعر الجديد الباحث عن أشكال فنية جديدة لرؤى وتطلعات جديدة.

إن ثورة الشعر العربي الحديث تتجدد إذن في ضوء التراث ومن هذه النقطة بالذات انطلقت وما تزال تنطلق التحديات التي تواجه الشعر العربي الحديث سواء تلك التي يطالب هذا الشعر بمواجهتها أم تلك التي تجري المحاولات لإدانته على أساسها ومن نافلة القول التأكيد على أن حسم مسألة التراث إنما تتم بتخطيه جدليا وليس بإنكاره والقفز فوقه والقصد بهذا التخطي الاستيعاب التام، وهنا يكمن الفرق في الموقف بين التراثيين والمجددين في التراث وبين الثورية في الشعر. ففي حين يقف التراثيون موقف التقليد ويتخذ المجددون موقف التطوير يلتزم الثوريون بموقف النقص التام وتقديم البديل عن طريق الاستيعاب والتخطي الجدلي.

إن جبران خليل جبران شاعر الحب والثورة من أول المبدعين الذين مارسوا التغيير و عانوا من عداباته عندما شرعوا في البحث عن القصيدة. التي تلغي نهائيا مسألة الموضوع الواحد (الغرض) وتستوعب تجربة حياتية كاملة تقولها بلغة شعرية، تستمد كل طاقاتها الفنية من النص وما يوفره من أبعاد جمالية تستند إلى علاقاته الداخلية وحركاته، لدلك سنحاول أن نتقرب من هده التجربة في أبرز لحظات تألقها وعطائها.

لقد وظف جبران خليل جبران الرمزية في شعره، إنه الرابط الأساسي الدي يشد مفاصل النص ويجنبه الإنكسار والتفكك، فالطموح الجوهري للشرقي العظيم في نظره هو رمزية النبوة ((ويشير جبران خليل جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل سنة 1929 إلى أن طموح الشرقي العظيم هو أن يكون نبيا.

في حين أن الطموح الروسي أن يكون قديسا والألماني أن يكون فاتحا والفرنسي أن يكون فنانا كبيرا والإنجليزي أن يكون شاعرا كبيرا))2 ومن هذا المنطلق جاء شعره كالثورة العاصفة التي تقتلع الأغصان التي أنبتتها الأجيال"3

## الوحدة والانعزال:

**هو ذا الفجر فقومي ننصرف عن ديار مالنا فيها صديق**
**ما عسى يرجو نبات يختلف زهـــره كورد وشقيـق**

من خلال قراءة متأنية لهدين البيتين تلاحظ درجة الانفعال التي فجرت كيان الشاعر وأدت به إلى الافصاح عن داته، و من ثم يطمح في الهروب عن واقعه و ومجتمعه، والدخول في عامل آخر، إنه

تصوير دقيق بخيال فني و((الخيال الفني يكسر الحاجز الدي يبدو عصبيا بين العقل والمادة، فيجعل الخارجي داخليا والداخلي خارجي ويجعل من الطبيعة فكرا ويحيل الفكر إلى الطبيعة)) 4 والشيء الملاحظ في هدين البيتين سيطرة القهر والاغتراب في مجتمع الشاعر ومحاولة الهروب منه بكل الوسائل الممكنة، وهده السيطرة التي دفعت بالشاعر أن يعيش في قلق مستمر بين داته ومجتمعه والقلق ((هو الانفعال المؤلم الدي نشعر به حين لا نستطيع أن نفعل شيئا ام موقف مخيف يهددنا بالخطر، ويعتبر القلق حالة توتر خامل و مستمر نتيجة توقع تهديد خطر فعلي أو رمزي قد يحدث وعليه يمكن اعتبار القلق انفعالا مركبا من الخوف و توقع التهديد والخطر5

**البحث عن الخلاص و السعادة**

**يا بـــــلاد حجبت منـــد الأزل — كيف نرجوك و من أين السبيل؟**
**أي قـــــفر دونها أي جبـــــل — سورها العالي و من أين الدليـــل؟**
**أســـــراب أنت أم أنت الأمـــل — في نفوس تتـــمنى المستحيـــــل**
**أي قفر دونها أي جبـــــــــل — سورها العالي و من أين الدليل؟**
**أمنام يتهادى في القـــــــلوب — فإدا ما استيقظت ولى المـــــنام**
**أم غيوم طفن في شمس الغروب — قبل أن يغرقن في بحر الظـــلام.**

من خلال هده الأبيات يقف الشاعر مرعوبا ممزقا، و يفقد القدرة على الانسجام مع واقعه و في محاولة تعويضية منه لمواجهة هدا الواقع المرير نجد الشاعر ينسحب إلى عالمه الداخلي و من هنا تبدأ رحلة الشاعر في جو من الرومنسية البريئة و محاولة البحث عن بلاد محجوبة لا يعرفها إلا هو و هدا نتيجة مرحلة الكبت والقلق الدي أصابه من المجتمع الدي يعيش بين دهرانه، و هدا ما يضخم الإحساس بالفقد على نحو يلزم عنه انبعاث صورة الوطن في صفاءها المثالي، و ألفتها المطلقة و نستطيع أن نؤكد أن وجود الوطن يصبح قائما في الدات وممتدا في داخلها بعد أن انقطعت في وجوده الفعلي. 6

إن الشاعر في حقيقة الأمر حائر لأنه يتأرجح بين نوازع كثيرة من بينها البحث عن هدا الوطن المفقود الدي يبحث عنه في كل مكان و زمان و من خلال هدا البحث المتواصل لا يجد إلا فنه وشعره لينفس عنه كربته ((إن الفن و الشعر خاصة هو مرادف للمعرفة الحرة، تلك المعرفة التي تقوم على المشاركة بين داتية الفنان و جاتية الآخرين، و من خلال تلك المشاركة يقترب الشعلر من الواقع و بالتالي يقترب من صدق التعبير عن هدا الواقع)) 7

إن الشاعر يطمح أن يتخطى إلى عالم آخر غير العالم الدي يعيش فيه، انه يطمح إلى الوصول إلى بلاد يريد الكشف عن حجبها، و لكنه لا يجد إليها سبيلا، إنها فعلا فلسفة الرومنسيين التي تدعو إلى الاغتراب والوحدة و العزلة و من هنا نحس دات الشاعر تحترق و أحلامه تتبدد لعدم تحقيق هدفه الدي يرغب في الوصول إليه فيصبح قائلا:

**يا بلاد حجبت منذ الأزل — كيف نرجوك و من أين السبيل؟**

من خلال هدا البيت نحس بدات الشاعر تقترب من معراج الصوفية اقترابا كليا، لأن الكشف والبحث عن المعرفة و اليقين هما سمتان من سمات الصوفية، إنها فعلا رحلة إغترابية يطمح من خلالها الابتعاد عن القلق الوجودي، الدي يهدد كيانه و يحطم معنوياته إنه يصبو إلى هده البلاد المحجوبة يتجاوز الواقع المأساوي الدي يعيش فيه، ثم خلق عالم خاص به، إنه هروب و انسحاب من مجتمع إلى مجتمع آخر.

إنها الغربة الزمنية و المكانية و انكسارات مساراتها، و هدا ينجم عن القلق الصوفي و عن الوعي المتكسر، الدس يشتق عن توتراته الداخلي8 بلوغ عالمه البرزخي9 بحيث يتيح له الاتصال به و الانفتاح عليه، متقدا بالحنين إليهة و هدا الحنين هو الدي يمنح التجربة الصوفية طابعها النوسطالجي10 ((فالدات في سفرها في العالم أو رحلتها إلى فوق إنما ترمي إلى النقاء و التطهي، إلى الانصهار بلهب العالم و التجربة و الخروج من دلك كله على أكثر بقاء وتتجدد عزيمة في مواجهة الحياة) 11

إن المعجم الصوري لهدا البيت السابق يكشف لنا عن شاعر حزين، آرقة البحث عن هده البلاد المحجوبة التي يطمح إلى وصالها و ظل الحزن يداعبه و قد يكون هدا الحزن رومانتيكيا في بعض الأحيان، فالحزن يعكس معاناة الشاعر تلك المعاناة التي قد تبدو مظهرا مأسويا لا يخلو من صراع و قلق و توتر حين تتعقد الأحداث فتنمو في دات الشاعر صورة المأساة وتتجسد من خلال لغته الشعرية الصافية صورا حرة طليعة تعبر بصدق و أمانة. (للإثارة و النشوة و المغامرة التي لا هدوء فيها ولا صفاء، بل إحساس مدهش بالقوة واستسلام لسلطة المخدر الدي ينسي الانسان نفسه فيتماثل مع الطبيعة)) 12

إن جبران خليل جبران فعلا إمتزج مع الطبيعة إمتزاجا كليا، و هدا بفعل حسه الرومنسي وروحه القلقة التي دفعته إلى التطلع و الإبداع و الإنشاء.

فجبران خليل جبران يحاول أن يعبر من خلال البيت السابق عن قلقه و تمزقه، وحنينه إلى عالم أفضل مطلقا، العنان لكل ما هو أسير مكبوت في أعماقه مسقطا كل ما يحول بينه و بين التعبيرالسابق من حواجز، مستخدما كل وسائل التعبير ليقول الحقيقة، حقيقته الداخلية ولو بصور رمزية، فالشاعر في صوره الشعرية و الفنية دات الطابع الإيحائي، الإبداعي لا يحقق لصوره القدرة على التألق بوعي مرهف و مدرك للخصائص الاجتماعية لمفهوم الواقع و العالم لديه، فهو فنان يحلل الواقع انطلاقا من دوره الإنساني وشاعريته الداعية التي ترى أن الموضوع الحقيقي للفن الشعري بمعناه الواقعي هو الأساس بأعماله العظيمة وآلامه، وحياته الروحية ورغبته في الابداع. 13

أي قفر دونها أي جبـــل　　سورها العالي و من أين الدليل؟
أسراب أنت أم أنت الأمل　　في نفوس تتمنى المستحيل14

إن رؤية الشاعر المتفائلة تنتهي بخيبة مريرة تتمثل في رئية الشاعر إلى هده البلاد التي أوصدت أبوابها في وجهه، فأسوارها عالية، وجبالها تحجبها، إنها هوس المغامرة التي يبحث عنها

الشاعر حتى يصل هدفه المنشود ولكن الشاعر في آخر المطاف يعود إلى نفسه فيصيبه الإحباط، واليأس، ويقتله الأسى والحزن، لأنه لم يجد الدليل الدي يوصله إلى مبتغاه، فيصبح قائلا:

**أسراب أنت أم أنت الأمل  في نفوس تتمنى المستحيل**

إن الشاعر هنا يتأرجح بين اليأس، والأمل، والخيبة، والرجاء، ولكنه يجزم أن البلاد التي يبحث عنها لا يمكنه الاهتداء إليها.

إن نفسية الشاعر الداخلية تطمح إلى القيام برحلة إلى هده البلاد، وهدا لتجاوز القوقعة الاجتماعية، ولتكسير جدارها الصلب، ومحيطها المغلق، لينتهي عند تخومها، فهده البلاد في نظره بعيدة مقفرة تغص بالعقبات و المجاهيل.

ومن هنا نجد الشاعر قد استسلم إلى اليأس و القنوط، فأسهما معا في نقل الإحباط لأن هدا الوهم الدي كان ينتظره الشاعر سرعان ما انطفأ وتبدد، فيعود الأمر إلى ما كان عليه، فيقول:

**أمـــــــنام يتهادى في القلوب  فإذا ما استيقظت ولى المنـــام**
**أم غيوم طفن في شمس الغروب  قبل أن يغرقن في بحر الظلام.15**

إن الشاعريستيقظ مرة أخرى على حقيقة مرة ليجد نفسه أمام أحلام ضاغنة لا سبيل لتحقيقها، إلا في الأحلام التي تجعل الشاعر يعيش في عالم مثالي مفعم بالأمال والأحلام ويقيم في خياله مدينة شاعرية فاضلة ومثالية وهو ما يرضي العقل والشعور رضاء تاما.

إن هده الأحلام الضاغنة التي أصبحت تراود الشاعر ثم تستيقظ على حقيقة مرة، حفيفة الواقع الدي يؤرقه و يقلقه، فالشعور بالقلق والتوتر يؤديان إلى عدم التناسق والشعور بالنقص أو شيء من هدا القبيل.16

وهكذا فإنه حين يتاح للشاعر أن يتمثل للمأساة في هده الصورة الشاملة، صورة القدر المحتوم الدي يبسط جناحيه على الجميع فإن الفاجع يأخد معناه الإنساني الحق، ويكون حس المأساة هو الدي يدفع بالشاعر إلى توليد الإبداع الدي يجعل من القضية الأدبية، أصلا للتنفيس عن روحه فيخرج الكلام من الشاعر في صورة رمزية قد لايعرفها إلا هو فالكلام يخرج على نحو آخر لأنه عمد إلى تطويعه، فوفقت بعض الحقائق الثابتة تحول دون هدا التطويع كاملا أو لأنه لم يعد إلى هدا التطويع، و ظن أنه قد نال ما يريد بما عبر به، وآن يكون الأمر في حقيقته غير دلك17 ((لأن الشاعر عندما يعبر تطغى عليه عواطفه أكثر من عقله، ويرجع دلك إلى أن الأديب يعيش أثناء عملية الابداع بإحساس أكثر مما يعيش بعقله بمعنى أنه يفسر حياته تفسيرا قائما على الوجدان)).18

إن جبران، في آخر الأمر يرجع إلى نفسه القلقة ليطمئنها أن البلاد التي يطمح إليها ليست موجودة في عالمه الواقعي، لقد كانت هده الحقيقة شديدة على نفسه، فيقول:

**يا بلاد الفكر يا مـــهد الأولى  عبدوا الـــــحق وصلوا للجمال**
**كم طلبناك بركب أو على  متن سفن أو بخيل أو رحـــــال**
**لست في الشرق و لا الغرب ولا  في جنوب الأرض أو نحو الشمال**

لست في البر و لا تحت البحار  لست في السهل و لا الوعر الجرح
أنت في الأرواح أنوار و نـــور  أنت في صدري فـــؤادي يختلج
أنت في الأرواح أنـــوار و نور  أنت في صدري فؤادي يختلج19

إن هذه البلاد التي يطمح الشاعر في الوصول إليها، ليشت بلادا محددة جغرافيا، إنما هي في خيال وحس الشاعر وهدا اغتراب يتضح لنا اغتراب الشاعر عن مجتمعه وأمته، لأنه سئم قضايا الوجود الانساني، تلك القضايا التي كان يعيشها باحساس الفنان الرقيق، إنه فعلا يحسن إلى هده البلاد التي بحث عنها كثيرا ولم يجدها لا في الشرق ولا في الغرب، ولا في الشمال ولا في الجنوب.

فكانت الصورة الشعرية عنده تعبر عن معاناته ووعيه واسرافه في التجريد وجنوحه إلى الرمز، الدي يظهر في مفردات هده الصورة "يا بلاد الفكر" "يا مهد الأولى" "أنت في الأرواح" "أنوار و نور" "أنت في صدري" "فؤادي يختلج" هده صور تجريدية وظفها الشاعر من خلال تجاربه الشعرية متباينة في مناخها النفسي وأجوائها الاجتماعية ورائحتها الفنية. التي تفوح منها اللوعة، والأسى، والتبرم بالزمن، ومحاولة التمرد على تقوقع الدات التي كانت حبيسة سجينة وغدت اليوم حرة طليقة بوجودها لهده البلاد التي يبحث عنها الشاعر كثيرا.

## الإحالات

1- جبران خليل جبران البدائع و الطرائف أوتوستراد، المزة دمشق، د ب، ص201- 202- 203
2- أدونيس: الثابت والمتحول، بحث في الإتباع والإبداع عند العرب، دار العودة، بيروت، ط1، 1978، ص164
3- خليفة محمد التلي (الشابي وجبران) دار الثقافة بيروت . دت، ص10
4- مصطفى ناصف: الصورة الشعرية، مكتبة مصر، ط1، القاهرة 1955، ص57
5- د. عبد الرحمن واف: الوجيز في الأمراض العقلية والنفسية، ديوان المطبوعات الجامعية دت، ص48
6- إعتدال عثمان: إضاءة النص، دار الحداثة، بيروت، 1970، ص07
7- جلال العشري، أزمة الشعر الجديد، الفكر المعاصر، عدد53، يوليو، 1969، ص70
8- أنظر، مصطفى عبد الحق، الكتابة والتجربة الصوفية، مطبعة عكاض، الرباط، 1988، ص83.
9- أنظر نصر أبوزيد، الرؤية في النص السردي العربي، مقالة في مجلة الفصول الهيئة المصرية العامة للكتاب العدد 3 1949، ص109.
10- أنظر عاطف جودت نصر، الخيال مفهوماته ووظائفه"، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1984، ص46.
11- أنظر نذير عظمة: المعراج والرمز الصوفي، دار الباحث د ت ص51
12- فاضل ثامر: حول الحداثة في الشعر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1986، ص72.
13- جوريس ستوشكوف: المصائر التاريخية للواقعية، ترجمة محمد العيثاني و أكرم الرافعي، ط1، بيروت، 1974، ص45.
14- الديوان ص 202
15- الديوان ص 202.
16- د. فاخر عاقل: الإبداع وتربيته، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1975، ص07.
17- سهير القلماوي: النقد الأدبي، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة دار المعرفة، القاهرة، دت ، ص53.
18- محمد العشماوي: قضايا النقد الأدبي المعاصر، الهيئة العامة المصرية للكتاب الاسكندرية، 1975، ص23.
19- الديوان ص202.